نظرة الكتابات التاريخية للصراع الاسباني-الجزائري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن18م-فتح وهران أنموذجا
بكاري عبد القادر، المجلد2، العدد2، أكتوبر2019، ص ص: 194-223

ردمد: ISSN 2602-618X

نظرة الكتابات التاريخية للصراع الاسباني-الجزائري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن18م- فتح وهران أنموذجا

الدكتور بكاري عبد القادر، جامعة ابن خلدون تيارت

A Look at the Historical Writings of the Spanish-Algerian Conflict In the Western Basin of the Mediterranean Sea during the 18th Century: Oran opening as a model

Dr. Bakari Abdelkader, University of Ibn Khaldoun-Tiaret
bekk1960@yahoo.Fr

تاريخ الإرسال: 24/ 08/ 2019 تاريخ القبول: 17/ 09/ 2019 تاريخ النشر: 22/ 10/ 2019

الملخص:

لقد شهد الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط منذ أقد العصور أحداثا هامة وخطيرة، تركت بصماتها على مجرى سير الأحداث، ولعل أهمها الصراع الأسباني-الجزائري الذي اقتطع من تاريخ المنطقة ثلاثة قرون من الزمن، وترك آثارا على المسرح الدولي عامة وعلى الطرفين المتنازعين على وجه الخصوص، ليس بنهاية الصراع عام 1206هـ/ 1792م، وهو تاريخ التحرير النهائي لمدينة وهران فحسب، بل أمتد بشكل أو بآخر ليؤثر على سير الأحداث في التاريخ المعاصر.

وعند البحث في المصادر التي تناولت الموضوع والتعمق في النظر لتفسيراتها، نرى بعض تلك المصادر تكتب بانحياز مفرط بحسب معتقد، أو قضية

يؤمن بها ويدافع عنها الباحث، ولكي نُفسر حوادثُها نحتاج إلى وقفة للنظر فيها، وإعادة قراءتها من جديد لكي تتحقق أصالة البحث.

من خلال هذا المقال سنحاول أن نتوقف عند بعض الكتابات المحلية منها والأجنبية، طارحين الرؤى المختلفة التي شكلت الركيزة الكبرى والهدف الجوهري العام لهذه الدراسة، كما نحاول ضبط مفهوم وتاريخية الصراع بين الطرفين وأسبابه الدينية خاصة، في إشكالية تمحورت حول دور المصادر التاريخية وأدبياتها في كتابة التاريخ، ومدى مصداقية الاعتماد عليها في تصور حقيقي للأحداث التاريخية بالنظر إلى الوقائع الحقيقية، معتمدين في مقاربة على المنهج التاريخي المقارن الملائم لهذه الدراسة أكثر من غيره من المنطلقات والمناهج.

الكلمات المفتاحية: الكتابة التاريخية؛ الحصون؛ الحملات العسكرية؛ المصادر؛ المصادر المحلية؛ التعصب الديني؛ القرصنة؛ الجهاد البحري.

Abstract: The western basin of the Mediterranean has witnessed important and dangerous events since the earliest times, which have left their mark on the course of events. Perhaps the most important of which is the Spanish-Algerian conflict, which has carved out three centuries of history in the region and left big effects on the world's scene in general and on the disputing parties in particular. It was not by the end of the conflict in 1206 AH / 1792 AD, the date of the final liberation of the city of Oran, but extended, in one way or another, to affect the course of events in contemporary history. When looking at the sources that dealt with the topic and digging deeper into their explanations, we guess that some of these sources written with excessive bias according to the belief or issue the researcher believes in and defends them, and in order to explain their incidents, we need to pause to consider them, and re-read them again in order to achieve the authenticity of the research. Through this article we will try to stop at some of the domestic and foreign writings, articulating the different visions that formed the main pillar and

the overall objective of this study, as well as trying to control the concept and history of conflict between the parties and its religious reasons in particular, in a problem centered on the role of historical sources and literature in writing history , and the credibility of relying on the real perception of historical events in view of the real facts, based on an approach to the historical comparative approach appropriate for this study more than other premises and approaches.

Keywords: historical writing; fortresses; military campaigns; sources; local sources; religious intolerance; piracy; Marine struggle

1-المقدمة:

لقد شهد الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط منذ أقد العصور أحداثا هامة وخطيرة، اهتزت لها شعوب المنطقة برمتها، وتركت بصماتها على مجرى سير الأحداث، ولعل أهمها الصراع الأسباني-الجزائري الذي اقتطع من تاريخ المنطقة ثلاثة قرون من الزمن، وهي القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر للميلاد، والتي تمثل الحقبة الحديثة من التاريخ الحديث، والأمر الهام أيضا أن هذا الصراع ترك آثارا على المسرح الدولي عامة وعلى الطرفين المتنازعين على وجه الخصوص، ليس بنهاية الصراع عام 1206هـ/ 1792م، وهو تاريخ التحرير النهائي لمدينة وهران فحسب، بل أمتد بشكل أو بآخر ليؤثر على سير الأحداث في التاريخ المعاصر.

ولا يزال موضوع هذا الصراع من المواضيع التي تشجع الباحثين على المزيد من البحث لمعرفة الأسباب الحقيقية التي بوساطتها أخذت الدول الأوربية التغلغل في الدول المغاربية، والتدخل في شؤونها الداخلية، إذ كانت من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ضعفها. وعندما نبحث في المصادر التي تناولت الموضوع والتعمق في النظر لتفسيراتها، نرى بعض تلك المصادر تكتب بانحياز مفرط بحسب معتقد، أو قضية

يؤمن بها ويدافع عنها الباحث، ولكي نُفسر حوادثُها نحتاج إلى وقفة للنظر فيها، وإعادة قراءتها من جديد لكي تتحقق أصالة البحث، وهذه من طبيعة البحث التاريخي للوصول إلى الحقيقة.

لقد اشتمل ذلك الصراع على العديد من الحملات العسكرية البحرية من كلا الطرفين، وفيما بين هذه الحملات وُجِدت فترات من الهدوء النسبي، لكن تخللتها معارك عديدة في كثير من الأحايين. وما يلاحظه الباحث البصير أن تلك الحملات ظهرت فيها مؤلفات قيّمة عديدة بمختلف اللغات، وخاصة اللغة العربية والاسبانية، وتزامنت وتتابعت بعدها كتابات أخرى تناولت كافة أحداثها ووقائعها، عبرت عنها مختلف الوثائق والمصادر القديمة منها والحديثة. إلا أن بعض الكتابات ورغم قِدَمها، فقد عبرت عن ذلك الصراع من وجهة نظر واحدة، فجاءت معبرة عن شطر واحد فقط، أي غير معبرة عن الحقيقة التاريخية كاملة، وما يقال عن المؤلفات الاسبانية مثلا يقال عن المؤلفات المحلية الجزائرية.

وعليه، ومن خلال هذا المقال سنحاول أن نتوقف عند بعض الكتابات المحلية منها والأجنبية، سواء التي عاصرت الأحداث، أو التي كتبت واعتمدت على الوثائق والروايات والمصادر، طارحين الرؤى المختلفة، والتي شكلت الركيزة الكبرى والهدف الجوهري العام لهذه الدراسة، كما نحاول ضبط مفهوم وتاريخية الصراع بين الطرفين، وأسبابه الدينية وأثاره خاصة، في إشكالية تمحورت حول دور المصادر التاريخية وأدبياتها في كتابة التاريخ، وهل يمكن اعتبار الاختلافات الدينية والحضارية والثقافية محركا من محركات الصراع؟ وما درجة ونوعية الكتابات التي لها أثر على صياغة السياسة المتبعة من جانب على آخر؟ أم هي مجرد مجال من مجالات الطرح والتعبير عن ما يدور في وجدان وأفكار الكتّاب والمؤرخين؟ وما مدى مصداقية

الاعتماد على الكتابات المحلية أو الأجنبية في تصور حقيقي للأحداث التاريخية بالنظر إلى الوقائع الحقيقية، خاصة إذا علمنا أن العديد من الكُتاب والمؤرخين شاركوا سواء كجنود في صفوف المقاتلين، أو كتاب لقادة الحروب كأبي راس الناصري، أحمد بن هطال التلمساني، الأغا بن عودة المزاري، مارمول كاربخال، دييغو هايدو... وغيرهم كثير. معتمدين في مقاربة على المنهج التاريخي المقارن الملائم لهذه الدراسة أكثر من غيره من المنطلقات والمناهج. وبرأي فإن الصراع الاسباني- الجزائري في صورته(المسيحي-الإسلامي) وفي ملامحه [1]الكبرى، ليس إلا عملية تفاعل تاريخي فكري وثقافي جرت وتجري بين الشرق والغرب.

2- أسباب وتاريخية الصراع الاسباني- الجزائري

قبل الخوض في الحديث عن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نشوب الصراع بين الطرفين، أود تقديم لمحة عن تاريخية البحر الأبيض المتوسط عبر العصور، هذا البحر الذي كان ومازال يعتبر الحلقة الرئيسة لكل الدول والشعوب المطلة عليه في كل جوانب الحياة، والذي شهد حالات من الحروب أكثر من حالات السلم والأمن، فالبحر الأبيض المتوسط ظل طيلة العهود الزمنية مقسوما إلى حوضين اثنين من الناحية العسكرية والحربية، حيث انحازت الأمم النصرانية بأساطيلها إلى الجانب الشمالي المشرقي منه، من سواحل الفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها...بينما كان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد(يقصد به ملوك صقلية

1-عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق: أ.م. كاترمير، بيروت: مكتبة لبنان، عن مطبعة باريس، 1992، ص: 36.

زمن الدولة الموحدية) موفور الأساطيل ثابت القوة، لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرَّة...[1].

وما يؤكده الجغرافي من أن قسمة البحر الأبيض المتوسط حوضين اثنين أمر صحيح نظريا وعمليا، لاحظه المؤرخ من الناحية التاريخية، من أن مجرى الحروب في الحوض الشرقي كان مختلفا عن مجرى الحروب في الحوض الغربي، وأن الإمبراطورية اليونانية كانت في الأكثر شرقية، والإمبراطورية الرومانية كانت في الأغلب غربية، إلا أن الصلة بين الضفتين ظلت وثيقة بينهما عبر التاريخ، ثم بينهما وبين ما حولهما، لأن اليونان والرومان حملوا لواء الحروب في الشرق والغرب معاً[1]2 . للعلم، أن المسلمين هم الذين وحدوا حوضي البحر الأبيض المتوسط ولمدة طويلة من الزمن، وحدوه في الفتح حتى أن المغرب والأندلس ظل ولفترة من الوقت مشرقيا في كل شيء، ولعل دعوى عبد الرحمن الداخل العظمى من أن مُلك بني مروان في الأندلس كان استمرارا لملكهم في الشام لخير دليل على ذلك.غير أن التاريخ وحده كان أحياناً ينفصل مجريَيْن فرعيين أو أصيلين، ليعود البحر الأبيض المتوسط إلى الانفصال خلال القرون السابع والثامن والتاسع للميلاد، ورغم مجيء الأتراك العثمانيين إلى المنطقة في القرن العاشر الميلادي محاولين توحيد الضفتين، إلا أنهم لم يستطيعوا، واكتفوا بوثبات في أقطار شمال إفريقية وخاصة الجزائر، وقد أصاب جورج سارطون لما رأى البحر الأبيض المتوسط منطقة جغرافية تامة تنقسم وحدات

2-العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، بيروت، منشورات المكتب التجاري، ط1، 1959، ص:10.عمر فروخ،

صغيرة، ثم رأى فيه تشابها واختلافا في وقت واحد[3] لا شك أن العامل الاقتصادي هو الذي أجج الصراع بين الطرفين، والمتمثل في أن وضعية المدن والموانئ الساحلية لدول المغرب العربي هي بمثابة البوابة التجارية بين الجنوب والشمال، والمتحكم فيها يتحكم في الجانب الاقتصادي بالنسبة لأوربا وأفريقيا، بالإضافة إلى العامل العسكري الذي يكمن فيما كانت تسميه الدول الأوربية بالقرصنة البحرية الجزائرية، التي كانت تبسط سيطرتها على غرب البحر الأبيض المتوسط، بل وتهدد المصالح الاقتصادية الاسبانية في عقر دارها.

ولكنني أرى أن العامل الديني وخاصة في تلك الفترة الزمنية(نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر للميلاد) الذي تزعمته الكنسية المسيحية الكاثوليكية المتطرفة بزعامة اسبانيا التي كانت بمثابة الممثل السياسي والدبلوماسي لأوربا في بداية القرن السادس عشر، هو القاعدة الخلفية لكل العوامل الأخرى، بل هو امتداد للحروب الصليبية التي كانت قد بدأت من قبل... نتيجة الحقد الدفين الذي غذته الكنيسة المسيحية، وروج له الاستشراق المتعصب الذي نشأ أثناء الحروب الصليبية وبعدها، رغم ما تعلموه من علوم وفنون من الحضارة العربية الإسلامية[4].

والمتصفح للتاريخ يدرك مدى عمق ودرجة الحقد والكراهية والغلو الكنسي المسيحي ضد كل ما هو تفكير إنساني حر، تفكير مخالف لتعاليم الكنيسة يعد كفرا وهرطقة وبدعة، يعاقب المجترئ عليه بأنواع التعذيب والقتل. فمنذ القرن الثالث

3- نفسه، ص:12.

4-علي محمد عبد الوهاب، بين الإسلام والغرب- ضراوة أحقاد ومرارة حصاد، القاهرة، دار ركابي، 1996، ص:201.

الميلادي قاومت الكنيسة الآداب الوثنية والعلوم اليونانية والرومانية القديمة، ورغم غارات البرابرة الهون والجرمان في القرن الرابع والقرن الخامس والقرن السادس للميلاد، ورغم الاضطرابات السياسية بين الأمراء أنفسهم تارة، وبينهم وبين الكنيسة تارة أخرى، إلا أن الكنيسة ظلت على تعصبها الديني، خاصة وان السلطة الروحية كانت في يد الكنسية والباباوات[5].

وحينما كانت الحروب الصليبية مستعّرة في الشرق في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، تزرع الخراب في كل مكان، وتقضي على مظاهر النهضات العلمية المختلفة، كانت الإشعاعات العلمية الإسلامية تسحب أذيالها في أوربا، فتبنت على آثارها العلوم والفنون، وازدهرت الحضارة واتسعت الثقافة، والتقى الشرق الإسلامي بالغرب المسيحي في ثلاثة ميادين رئيسية أهمها الأندلس، خرج منها الغرب بأحسن النتائج ثقافة وحضارة، وبأكثر الفوائد علما وآداباً، في حين أن الشرق خرج بأوخم العواقب وأسوأ النتائج النفسانية والسياسية والعمرانية[6].

3-الصراع الاسباني-ا لجزائري في الكتابات المحلية

إن موقف الكتاب والعلماء نابع من مفهوم السياسة الشرعية التي تقوم على حماية الوطن وتوفير الأمن والاستقرار، والحكم العادل وحماية الثغور، وهو ولا ريب واجب السلطة والجماعة معاً، وفي نظر هؤلاء أيضا، أن المصالح والشريعة لا يتحققان إلا في ظل سلطة قوية، تتصدى للفتن والاضطرابات، خاصة وأن المغرب الأوسط

[5] عمر فروخ، أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية، بيروت، منشورات مكتبة منينمنة، ط2، 1952، ص:06.

[6] -نفسه، ص:12.

كان مقسما إلى إمارات والى موانئ مستقلة ذاتيا، لا وجود للترابط والانسجام فيما بينهم. لهذا نجد أن معظم الكتابات المحلية التي تناولت موضوع الصراع- الاسباني الجزائري، والتي تميزت بالتأييد القوي للسلطة العثمانية ارتكزت على المعطيات التالية:

- أن مجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر كان بسبب الاحتلال الأسباني للسواحل الجزائرية، والتهديدات المتكررة للجزائريين، فقام الأتراك العثمانيون بتطهير البلاد من أهل التثليث والأوثان، وبتحرير العديد من المدن الجزائرية كبجاية ومليانة وتنس وتلمسان ووهران.

– تعرض قبائل الناحية الغربية من الوطن الجزائري خلال الاحتلال الاسباني للسبي والقتل والأسر، وتخريب المنشآت العمرانية الدينية كالرباطات والزوايا، وشهادة الشيخ مصطفى الرماصي على رواية العالم الفاسي عبد الرحمن الجامعي لدلالة، قائلا:كنت وفدت عقب الفتح على العالم العلامة أبي عبد الله سيدي محمد المصطفى الرماصي القلعي، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل، يأوي إليه ليلا، ويظل نهارا في داره ومسجده، فسألته عن ذلك، فقال لي: كنا على هذه الحالة على عهد النصارى خوفا منهم... من أن يصلونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشعر، ليسهل علينا الفرار إلى غابة الجبل فنمتنع منهم[7].

– تراجع الحياة العلمية والثقافية بالمدن التي مسها العدوان الاسباني وخاصة مدينة وهران التي تعرضت معالمها الحضارية للتخريب كالزوايا والمساجد،

[7]- ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر، منشورات وزارة الشئون الدينية، مطبعة البعث، 1973، ص: 30-31.

كمسجد البيطار الذي حوله الكاردينال خيمينيس إلى كنيسة عام973هـ/ 1509مـ وأطلقوا عليها اسم سيدتنا المنتصرة[8].

– وضع حد لمكر القبائل المتعاونين مع النصارى الأسبان، وقد وصلت أفعالهم الشنيعة درجة لا تحتمل، فكانوا عيونهم الباصرة، وجنودهم الهائلة المتكاثرة، فكم غزوا بهم على المسلمين، وكم سبوا بهم من المؤمنين، وكم جاسوا بهم خلال الديار، وكانوا لهم عليهم أعوانا، وفي الدين الفاسد لهم إخوانا[9].

3-1- كتاب مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار: للحاج أحمد الشريف الزهار بن الحاج علي النقيب ابن احمد بن عبد القادر النقيب بن علي بن الحاج الخير بن بو عبد الله بن أحمد بن الشيخ سيدي محمد الشريف الزهار القرطبي. ولد عام 1196هـ/ 1781مـ بمدينة الجزائر، وأخذ العلوم عن رجالها، وبعد سنة 1246هـ/ 1832مـ أبعدته السلطة الاستعمارية الفرنسية إلى تونس، لكنه عاد إلى الجزائر ليتسلم وظيفة نقيب الأشراف من جديد، إلا أن وافته المنية عام 1289هـ/ 1872مـ.[10].

إن كتاب مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ترجمة صادقة لشخصيته المتحمسة للإسلام وللوطن الجزائري، ويرى أن الجهاد ضد النصارى واجب الدولة وواجبه، صَريح في أقواله، شديد في انتقاداته خاصة عندما يتعلق الأمر بالحكام

[8]–يحي بوعزيز، وهران، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1985، ص:160.

[9]–عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، بيروت، دار الحياة، 1972، ص:26.

[10]–أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار–نقيب أشراف الجزائر، الجزائر، دار البصائر، 2009، ص:41.

الأتراك في الجزائر. من بين أهم القضايا التي شغلته في كتابه هذا﴿الصراع الاسباني – الجزائري﴾ويسميها بـالحروب.

يتحدث الشريف الزهار عن بداية الصراع بين إسبانيا والجزائر، فيحدده بسقوط آخر معقل للمسلمين بغرناطة عام896هـ/ 1492مـ، وتوحيد المملكتين الاسبانيتين(قشتالة وأرغون)، في إشارة إلى احتلال المرسى الكبير عام 1505مـ ومدينة وهران عام1509مـ، كخطوة أولى في الجزائر، مركزا على الأسباب الدينية للصراع، والمتمثلة في عداوة وكراهية الأسبان لكل ما هو إسلام ومسلم. كما يشير إلى اختلال موازين القوى العسكرية بين الطرفين، فالأسبان يملكون قوة عسكرية حديثة(الأسلحة النارية كالبنادق والمدافع)، وأسطول بحري من أضخم الأساطيل في مطلع القرن السادس عشر للميلاد، وتقدم تقني في فنون الحروب، وكل ذلك نتيجة لما بلغته أوربا في عصر نهضتها، في المقابل لا يملك الجزائريون سوى أسلحة بدائية تقليدية(الرماح والسيوف والحجارة...)، وفي هذا الشأن يقول بروديل ما يلي:كان الضعف العسكري لمسلمي شمال إفريقيا بالمقارنة مع الأسبان يتمثل في دونيتهم العسكرية المتميزة، وكان باديا على المور(بمعنى المغاربة) أنهم لم يعرفوا التقدم التقني لفن الحرب...ولا يجيدون بناء الحصون ولا اقتحامها، ولقد جعل الاستخفاف بالأسلحة الحديثة من المور أعداء قليلي الخطورة....[11].

ثم ينتقل الكاتب إلى الحديث عن الحرب الأولى حسب نظره وهي حملة الكونت أوريلي على مدينة الجزائر عام 1184هـ/ 1775مـ في عهد الداي محمد عثمان

[11]–فردناند بروديل، الأسبان وشمال إفريقيا من1492–1577، المجلة الأفريقية، ع69، سنة1926، ص ص:212–217.

باشا(1766-1971مـ)، هذه الحملة التي يصفها بالعمارة التي تكونت من خمسمائة مركب[12]، وبعد وصولها إلى الساحل الشرقي لمدينة الجزائر، بقيت ثلاثة أيام معسكرة بمنطقة وادي الحراش، وفي اليوم الرابع بدأت المعارك. في حين أنه يصف القوات الجزائرية بالتنظيم المحكم والتوزيع الدقيق الذي قام به الداي محمد عثمان منذ أن عَلِم بتحضيرات هذه الحملة. هذا التنظيم دفع بالجزائريين إلى كسر شوكة القوات الاسبانية ودحرها، فكان النصر حليف الجيش الجزائري الذي غنم مائة مدفع(في حين أن الكاتب ماجور دالريمبل يقدم عدد خمسة عشر مدفعا فقط وثلاث راجمات) وكمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة، بالإضافة إلى عشرات القتلى والجرحى والأسرى، وقد استغنى الناس في ذلك اليوم مما جمعوه بعد مغادرة المراكب الاسبانية، من أثاث وساعات ودراهم وحوائج أخرى مما لا يحصى[13].

من بين السمات المميزة في الكتابة التاريخية عند أحمد الشريف الزهار، الاهتمام بالتأريخ لكل حدث من الأحداث، حيث يستعمل التاريخ الهجري دون غيره من التواريخ الأخرى، وهو ما يذكره عند الحديث عن الحرب الثانية مع اسبانيا، قوله:لما كانت سنة1197هـ قدم الإسبانيول للمرة الثانية مثل المرة الأولى وارسوا في الجون بعيدا عن مرمى الكور...وقوله أيضا وهو يتحدث عن الحرب الثالثة مع اسبانيا:فلما قدم الاسبانيول للمرة الثالثة سنة 1198هـ أرسى مراكبه، ومكث ثلاثة

[12]-Dalrymple, (M), l'expédition d'oreilly en 1755, Revue .Africaine. n°5, 1861, pp :33-34.

[13]-أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص:44.

أيام، وفي اليوم الرابع بعث اللنجور للقتال، فخرج إليه المسلمون وتلقوه باللنجور كذلك[14].

يخصص مؤلف كتاب المذكرات عناوين كاملة للحملتين الاسبانيتين على مدينة الجزائر، الثانية والثالثة التي قادها الدوق انطونين باسيلو سنوات1198 هـ/ 1783مـ و1199هـ/ 1784مـ، بقوة كبيرة مشكلة من 400 قطعة بين كبيرة وصغيرة، وكان الداي محمد عثمان على استعداد دائم وتام لهذه الحملات عدة وعتادا، بتجميع القوات من البايلكات الثلاث في مدينة الجزائر، خاصة وانه كان يعلم بتحرك تلك الحملات منذ إقلاعها من ميناء قرطاجنة، مثلما حدث للحملة الثانية التي ابلغه بها ملك المغرب الأقصى، بان الأسبان يحضرون لحملة على الجزائر[15].

للعلم أن هذه الحروب دارت رحاها في السواحل فقط، حيث صار الأسبان يرمون بالقنابل(البونبة) على المناطق القريبة من الساحل لمدة ثلاثة أيام مستعملين زوارق صغيرة عليها مدافع تسمى بـاللنجور، ولكن القوة البحرية الجزائرية قاتلت بثبات، وأجبرت العدو الاسباني على الانسحاب، وأن يُوَلي دبره خائبا منهزما في كلا الحملتين، وفي ذلك يصف أحمد الشريف الزهار حالة الجنود المندفعة للقتال والمشدودة للجهاد بقوله:وعندما يأتي وقت الخروج لملاقاة العدو، تجد الناس يزدحمون على الركوب معهم، ولا يصل لذلك إلا الرجل الشجاع...ويخرج المجاهدون تصحبهم آلات الطرب والجواق، كأنهم خارجون للنزهة...[16].

---

[14]-أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص:50-52.

[15]-Charles Féraud, les trois attaques des espagnols contre Alger au XVIII, Revue. Africaine,n°20,1876, pp : 302-304.

[16]-أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص:53.

إن فشل الحملات الاسبانية على مدينة الجزائر وعدم تحقيقها لأي هدف من أهدافها، قابله نجاح وفقت فيه الحكومة الاسبانية تمثل في عقد اتفاقية للصلح مع الجزائر يوم 26 أوت1786م، وعن ذلك يروي أحمد الشريف الزهار قصة قبول الداي محمد عثمان الصلح مع الأسبان وهو الذي كان يرفض ذلك جملة وتفصيلا مادام حيا. أن وكيل الحرج حسن اتهم باستلام هدايا وأموال من النصارى الأسبان للتوسط لهم عند الداي، وان عملية نقل الداي محمد عثمان من قصره بالجنينة إلى أعالي القصبة بعد تهاون الجنود في المعارك عند بدايتها، كان بغرض دفع الداي لقبول الصلح مع الأسبان ليس إلا[17].

ورغم قيمة وعظمة الحدث، المتمثل في فتح مدينة وهران واسترجاعها سنة1206هـ/ 1792م بقيادة باي معسكر محمد بن عثمان الكبير، إلا أنه يكتفي بالإشارة إلى الحصار الطويل الذي ضُرب على المدينة حتى تم استلامها وخروج الأسبان منها، وانتقال مقر البايلك من معسكر إلى وهران، وإرسال مفاتيح مدينة وهران(هي عبارة عن ثلاثة مفاتيح ذهبية المعدن) كبشارة إلى السلطان العثماني سليم الثالث الذي استبشر وفرح بهذا الفتح العظيم، وبعث لحسن باشا الخلعة والتقليد، لكن صاحب كتاب التحفة المرضية يذكر أن السلطان العثماني سليم الثالث رفض طلب الداي محمد بكداش، ولم يبعث بالقفطان لصهره أوزن حسن كشعار إلى ترقيته إلى رتبة باشا[18].

---

[17]-نفسه، ص:54.

[18]-محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972، ص:30.

للإشارة فقط، أن أسلوب احمد الشريف الزهار يمتاز بصدق العاطفة، وأمانة الشعور، وتقصّي الأخبار، سهل وبسيط وواضح المعنى، كما يجمع بين محتوى التاريخ ومظهر الأدب، واصطباغ الحقائق بالعواطف، وامتزاج الروايات بالنقول بلغة مميزة تميل إلى الضعف والركاكة في غالب الأحيان، واستعمال ألفاظا وكلمات عربية وغير عربية بنطق عامي مثل: البونبة، الطرسنة، العسة... ولعل العبارة التي اخترناها على سبيل المثال لا الحصر دليل واضح، قوله:﴿فلما كان أثناء الطريق لحقه بعض مراكب الاسبانيول وطلعوا للمركب الذي هو فيه...وتكلموا معه على أن يتوسط لهم في الصلح﴾[19].

3-2- التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية: هو الكتاب الثاني الذي اخترناه في دراستنا هذه، لأبي عبد الله محمد بن ميمون الزواوي النجار الجزائري، حفيد الشيخ الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري.ولد بمدينة الجزائر من أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والتصوف، وكل ما يعرف عن تاريخ ميلاده ووفاته المجهولين، أنه عاصر الداي محمد بكداش، وفتح وهران الأول عام1708مـ، وسقوطها للمرة الثانية بيد الأسبان عام 1732مـ.[20].

إن المتمعن في نظرة محمد بن ميمون إلى مسألة الصراع الاسباني الجزائري من خلال كتابه المذكور آنفا خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، يجده لا يختلف كثيرا عن حال الكتابات المحلية الأخرى التي أرخت للحدث(فتح

[19] احمد الشريف الزهار، المصدر السابق، ص: 54.

[20] محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص:11.

وهران)، ولا عن ذلك الموقف الموحد اتجاه الاحتلال الاسباني لمدن الجزائر ومنها المرسى الكبير ووهران.

إن الهزة التي أحدثها فتح وهران الثاني عام 1792مـ لكتّاب الجزائر ومؤرخي الجهة الغربية من الوطن خاصة، هي الهزة نفسها تقريبا التي انتابت الكتّاب الأسبان والأوربيين عامة إثر سقوط غرناطة عام896هـ/ 1492مـ، وان الكل شعر بتلك الهزات على طريقته الخاصة، وإذا كان سقوط غرناطة أخر معقل للمسلمين بالأندلس أنهى حقبة من حقب التاريخ الإسلامي في أوربا والى الأبد، فإن فتح وهران الثاني جاء ليكتمل حركات التحرير النهائي للموانئ الجزائرية من الاحتلال الاسباني والى غير رجعة.يتألف كتاب التحفة المرضية من مقدمة وست عشرة مقامة، والمتمعن في هذه المقامات يجدها مقسمة إلى قسمين: قسم مخصص للحديث عن سيرة الداي محمد بكداش إبّان توليته الحكم، وذلك من المقامة الأولى وحتى المقامة الثامنة، وكأني بمحمد ابن ميمون من خلال هذه المقامات يقدم شيئا يبتغي من ورائه رضى وقبول الداي، وهو ما يشير إليه في مقدمته بقوله:أردت أن أخدم مجلسه العالي بزف هذا الكتاب إليه، المحتوي على ما نشر من السيرة المحمدية عليه، وأشرف محاسنه بمثوله بين يديه، فوسمته باسمه، وكسوته نور وسمه[21].

أما القسم الثاني فيخصصه لقصة الفتح الأول لمدينة وهران، من المقامة التاسعة وحتى المقامة الخامس عشرة، وهذا ما نحن بصدد دراسته في هذا المقال.

يخصص المقامة التاسعة والتي هي بعنوان في ذكر الخروج لوهران بقصد غزو الكفرة وما حدث بعده من مقاتلة اللئام الفجرة لسياسة الغزو والفساد الاسباني،

[21] نفسه، ص: 113.

ومعاناة السكان والقبائل المجاورة لمدينة وهران من العذاب والتقتيل والسبي طيلة مدة مكوثهم بمدينة وهران، والمقدرة بـمائتين وخمسة أعوام، والى بناء وتشييد الحصون، والتي كان الجنود الأسبان يحتمون بداخلها كلما كانت حملة ضدهم.

ويشير في نفس المقامة إلى يد المساعدة والعون التي تلقاها الأسبان من قبائل بني عامر ضد بني جلدتهم، والذين وصفهم بأرذل الأوصاف، ونعتهم بأقبح الصفات، ومنها على سبيل المثال: عروب أتراب تولغ فيهن الكلاب... أمة لا تعقل رشدها...ليس فيهم زاجر ولا منهم إلا غاوي فاجر...وهو يلتقي في ذلك مع نفس النعوت التي نعت بها عبد القادر المشرفي هذه القبائل في كتابه بهجة الناظر...قوله:ولما استقل قدم الاسبانيين بوهران انحاز إليهم طوائف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم والعياذ بالله من ذلك، فصاروا خدمة لهم، ومن جملة جيشهم، وكثر بهم السواد على المسلمين، فكانوا لهم عليهم أعوانا، وفي الدين الفاسد لهم إخوانا، فشنّوا بهم الغارات، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات[22].

وحتى يصبح تعبير الحس الوطني في ظل الحمل التاريخي مصطلحا أكثر إخصابًا، يأتي دور العلماء والفقهاء والشعراء في التحريض على الجهاد والقتال، وهو ما يشير إليه ابن ميمون كثيرا، لأنه يمكن أن يفهم ذلك كوسيط تلاقح بين طبقة العلماء والشعراء وطبقة الجنود المرابطين للجهاد في الصفوف الأولى كجذور أولى، ويمكن أن يفهم كمرحلة استيعاب تمثل إصرار موقف السلطة الحاكمة على المضي قدما للقتال، ويمكن أن يفهم ثالثا كفاتحة لعصر جديد يحمل معاني التحرر والتخلص من معاناة دامت لأكثر من قرنين من الاحتلال الاسباني لمدينة وهران. قلت يأتي دور

[22]-عبد القادر المشرفي، المصدر السابق، ص:12.

العلماء والشعراء خاصة بتنظيم قصائد تعتبر من عيون الشعر، تعيها القلوب وتُتلى في باب الحماسة والتحريض على جهاد وقتال النصارى الأسبان، ومن القصائد التي تعبر بصورة صادقة عن الشعور الشعبي، وعن استنفار الحكام، القصيدة المشهورة التي أقرضها الشاعر محمد بن محمد بن علي الملقب بـابن أقوجيل[23] التي يقول فيها:

أَقْصُدْ بِلادَ الكُفْرِ شَتَّتْ شَمْلَهَا خَرِّبْ بِهَا مَا كَانَ مَعْمُورِ
مَزّقْهُمُ أَيْدِي سَبَا حَتَّى يَرَوْا قَدْ حِيلَ بَيْنَ صَغِيرِهِمْ وكَبِيرِ

أما المقامات العاشرة، والحادية عشر، والثانية عشر، والرابعة عشر، والخامسة عشر، فيخصصها لحصار واستفتاح الحصون المنيعة التي شيدها الأسبان حول المدينة، وهي على التوالي: حصن العيون، والذي سماه الأسبان ببرج القديسين، تعرض لعديد الهجمات الجزائرية، ولكن الأسبان كانوا يجددونه باستمرار لأهميته في الدفاع عن المدينة، افتتحه أوزن حسن في 10 جمادى الأخير سنة1119هـ/ 8 أكتوبر1707مـ. وحصن الجبل(جبل المائدة) والمعروف ببرج مرجاجو الذي استفتح يوم27 من جمادى الأخير سنة1119هـ/ 25 أكتوبر 1707مـ، وحصن بن زهوة أو ما يعرف ببرج اليهودي الذي فُتح يوم 5 شعبان سنة1119هـ/ 6 نوفمبر1707مـ، وحصن برج الأحمر الذي يعود تأسيسه إلى العصر الوسيط، حيث اتخذه بحارة بنادقة نواة لتجارتهم، وعندما سيطر أبو الحسن المريني على المنطقة ما بين1331-1339مـ اعتنى به ليصبح قاعدة

[23]-هو محمد بن محمد بن علي أقوجيل القوجيلي، فقيه مالكي، كاتب وناقد، محدث وشاعر، من أسرة توارثت القضاء في عهد الأتراك، ومنها توليته القضاء في عهد الداي محمد بن عثمان، درس على يد الشيخ عبد الواحد الأنصاري المغربي، من مؤلفاته: عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر البحر الجامع. توفي عام1080هـ/ 1669مـ. ينظر: عادل نويهض، معجم الأعلام، ج1، لبنان: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1975، ص:224.

لنشاط المسلمين للدفاع عن المدينة، والذي افتتحه أوزن حسن بضربة مكينة، ألقى النصارى على إثرها أسلحتهم ومفاتيحهم، طالبين الأمان جزعا من الموت، فصاروا أسارى وهم نحو خمسمائة وستين محاربا[24].

لاشك أن الحدث الأبرز الذي يتوقف عنده ابن ميمون كثيرا هو فتح وهران الأول وكيف صار عز الكفرة إلى الهوان، يُذكِر بشهرة المدينة التاريخية والاقتصادية، وكيف غابت بسالتها ومنبت شوكتها في ظل الاحتلال الاسباني لها، يقول عنها:الخصيبة النبات والمستبحرة الماء والجنات، حيث الزرع يمتار منه العباد والبلاد، مدد الوفود والكروم...الجناب الأعشب، والموضع المبهت المعجب...كما يذكر بطريقة الحصار والهجومات التي قذفت في قلوب الكافرين الرعب الذين تأهبوا للفراغ وحملوا أمتعتهم إلى عدوتهم، فدخلها الخليفة أوزن حسن بجنوده يوم الجمعة 26شوال1119هـ/ 20جانفي1708م[25].

إلا أن طابع الكتابات الأجنبية تقدم دائما التفاسير الموازية للأحداث، الخالية من الروح العلمية الصادقة، وهو ما يعقب به جون وولف الذي يشير إلى عدم قدرة اسبانيا على حماية المدينة بسبب انشغالها بالحرب الأهلية في إطار الحروب الأوربية التي أعقبت وفاة شارل الثاني عام1700م، فاستغلها الأتراك للاستيلاء على وهران والمرسى الكبير، ويقول أيضا أن أعمال هايدو ومرمول كاربخال لا تقدر بثمن،

[24] محمد بن ميمون، المصدر السابق: ص:238.

[25] -نفسه، ص:225.

ولولاها لما قارب أي كتاب عن المغرب حدود الثقة العلمية[26].فأي ثقة علمية يقصد، وما هو مفهوم الثقة العلمية في نظر هؤلاء، وفي نظر العلم والمنطق؟

4-الصراع الاسباني- الجزائري في الكتابات الأجنبية

لعل من الملاحظات الأولية التي أسوقها قبل الحديث عن بعض الكتابات الأجنبية التي تناولت موضوع الصراع الاسباني- الجزائري، هي أن معظم إن لم أقل كل الكتابات التي تناولت الموضوع، وحتى التي حاولت السير في الاتجاه الموضوعي لم تخرج نظرتها عن المدرسة الاستعمارية، والتي كانت قاعدتها الخلفية الكنسية المسيحية الكاثوليكية. بحيث لا يكاد يختلف الكُتاب في دراسة العلاقات بين الطرفين في المعنى القديم، شرق إسلامي مشكوك في شرعيته، وبالتالي الحط من تصرفاته التي يحركها التعصب الديني، وغرب مسيحي مُسَلَم بشرعيته، وبالتالي تمجيد لأعماله وتصرفاته التي توجبها العلاقات الدبلوماسية الدولية في السلم كما في الحرب.

4-1- كتاب وهران قبل أثناء وبعد السيطرة الاسبانية Oran avant, pendant et après la domination espagnoleلهنري ليون فاي(Henry-Léon, fey)، الحاكم العسكري لناحية وهران في النصف الأول من القرن19مـ خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية للجزائر. الكتاب في أصله عبارة عن وثيقة مخطوطة باللغة الاسبانية مؤرخة بـ 31 ديسمبر1772مـ، عثر عليها ضابط الجيوش البرية الاسبانية خلال زيارة تفتيشية لمدينة وهران، نقلت بعدها إلى خزانة أرشيف وزارة الحربية بمدريد، لتنقل عام 1850مـ من

[26]- جون وولف، الجزائر وأوربا 1500-1830مـ، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص ص:399-495.

قبل ضابط السفارة الفرنسية إلى السيد لا شودي لوكوسيي الذي قام بترجمتها من اللغة الإسبانية إلى اللغة الفرنسية[27].

تحتوي الوثيقة على معلومات دقيقة وقيّمة عن مدينة وهران خلال مرحلة الاحتلال الاسباني لها، وحول مختلف مؤسساتها المدنية والعسكرية، المستشفيات، الحصون، السجون، وحول السكان المحليين لمدينة وهران في تلك الفترة. الكتاب مقسم إلى مقدمة ولمحة تاريخية وأربعة أقسام. فالقسم الثالث يتحدث فيه الكاتب عن الأجواء العامة التي سادت إسبانيا في الربع الأول من القرن التاسع عشر، من استعدادات سياسية وعسكرية لإعادة احتلال مدينة وهران التي طردت منها عام1708مـ، خاصة وان أثار الهزيمة ظلت جاثمة على صدور حكامها، ومما عَبّد الطريق لهم، الاتفاق الذي تم بين اسبانيا وفرنسا وانجلترا وهولندا، والذي وضع حدا نهائي للحرب الاستقلالية بأوربا.

ففي 6جوان 1732مـ أصدر الملك فيليب الخامس منشورا يطلب فيه الدعم الداخلي للممالك ومن الدول الأوربية المسيحية حول مشروع استعادة ميناء وهران، والذي لا يقدر بثمن، وهو ما يوضحه بهذه العبارة التي تعمدت كتابتها كما جاءت في كتاب هنري ليون- فاي، قوله(La position de la place et du port d'Oran, disait Philippe V dans ce manifeste, donne à la régence d'Alger des avantages formidables sur les provinces méridionales de mon royaume[28]).

---

[27] –Henry –Léon(f), histoire d'Oran avant pendant et après la domination espagnole, Oran :typographie Adolphe Perrier-éditeur,1858 ,p :05.

[28]- ibid., p : 145.

وفي 15 جوان1732مـ أقلعت الحملة الاسبانية من ميناء اليكانت، بـإحدى وخمسين سفينة حربية وخمسمائة مركب، تحمل ثمانية وعشرين جندي، منهم ثلاثة ألاف فارس بقيادة الكونت مونتمار، والتي وصلت راس فالكون في 30 جوان، ورغم وجود الأربعين ألف جندي عربي(ولسنا ندري من أين استقى الكاتب هذه المعلومة الخاصة بهذا العدد، لأن الحامية لم يكن بها سوى بضعة مئات من الجنود الانكشارية) الذين حاولوا إيقاف الحملة وإرغام جنودها على عدم النزول إلى شواطئ المدينة، إلا أن سرعة وقوة الحملة وشجاعة الجنود على حد قول الكاتب أرغمت الباي بوشلاغم وجنوده على الانسحاب تاركين وراءهم138 قطعة مدافع، ومئونة كبيرة، كما انسحب السكان إلى خارج أسوار المدينة، لتدخلها القوات الاسبانية يوم 1جويلية، فلم يجدوا فيها سوى خمسة شيوخ لم يتمكنوا من الفرار، وفي اليوم الموالي زحفت القوات الاسبانية إلى المرسى الكبير بعد استسلام الحامية التركية بها[29].

وفور الاستقرار بالمدينة شرعوا في إعادة بناء الحصون، لأن أمن المدينة يتوقف على حصونها، ورغم المحاولات المتكررة التي قادها الباي بوشلاغم، ومن جاء بعده من البايات على مدينة وهران، إلا أنها فشلت، وظلت المدينة تحت السيطرة الاسبانية إلى غاية1792م، وهي سنة انسحاب القوات الاسبانية إلى غير رجعة[30]ـ .

أما القسم الرابع من الكتاب فيخصصه الكاتب للاستعدادات العسكرية والشعبية، حيث جند الباي كل فئات المجتمع آنذاك من جنود وعلماء وطلبة لاسترجاع مدينة وهران. ولكن، وكعادة الكتاب الأجانب خاصة الأسبان والفرنسيين

[29] - Monnereau (Dr), les inscriptions d'Oran et de mers el-kebir par M le général de sandoval, Revue. Africaine. n°15 et16, année1871-1872, pp : 177-183.

[30] -Henry- Leonfey, op-cit, p: 145.

يوعزون التراجع والهزيمة إلى عوامل أخرى، منها انشغال اسبانيا بالتحالف الأوربي المفروض عليها ضد جمهورية فرنسا التي أقلقت انتصاراتها كامل أوربا، فتعذر على الملك شارل الرابع المحافظة على الجبهتين والصمود، فالأمر يتطلب مجهودات أكبر وموارد أكثر، يضاف إلى ذلك عامل آخر، وهو الزلزال العنيف الذي ضرب مدينة وهران يوم 9اكتوبر 1790مـ، والذي خرب أجزاء كثيرة من المباني والمنازل، هذا الزلزال الذي اعتبره جون وولف عمل من الله تَدخَل إلى جانبهم في النزاع مع الأسبان[31].

ونظرا لذلك، قررت المملكة الاسبانية إرسال وفد إلى الجزائر بداية سنة 1791مـ بقيادة النقيب جينباردا(Guinbarda)حاملا مقترحات تسليم مدينة وهران لحكومة الداي محمد بن عثمان، هذا الأخير الذي رفض المحادثات بشروط مسبقة، فتعقدت أمور الملك الاسباني أكثر، خاصة وان الحصار الذي ضربه الباي محمد الكبير قد أضر كثيرا بالحامية الاسبانية بوهران. وفي هذه الأثناء(جويلية1791مـ) توفي الداي محمد بن عثمان الذي كان يرفض الاتفاقيات بأي شكل من أشكال الشروط، ليعاود الأسبان الاتصال بخليفته علي أبو حسن الذي قبل شروط الملك مقابل تسليم مفاتيح مدينة وهران وميناء المرسى الكبير في أسرع وقت ممكن[32].

أود أن اختم حديثي عن هذا الكتاب بملاحظة، وهي أن موضوع الصراع الإسلامي–المسيحي الذي جسده النزاع الاسباني الجزائري بداية القرن السادس عشر للميلاد حول مدينة وهران وميناء المرسى الكبير، كتب فيه الكثير، وما زالت الكتابات

[31]–جون وولف، المصدر السابق، ص: 410.

[32]-Henry-Leon, fey, op-cit, p: 257.

مستمرة سواء عند الأوربيين أو الجزائريين، ولأننا لا نملك مجال آخر، آثرنا أن نستفيد من النتائج العامة التي توصل إليها الكُتاب حول بديهية كانت ولا تزال لعمليات الصراع والتفاعل والتجادل بين الشعوب بكل أشكاله الدينية والروحية والفكرية، فوجدنا كتاب هنري ليون فاي صورة من صور معظم الكتابات الأوربية التي استسلمت لمنظومة فكرية وثقافية قديمة(منظومة ما قبل الحداثة وما بعدها) تعيد إنتاج مفاهيمها القديمة بصيغ جديدة.

4-2- كتاب الجزائر وأوربا 1500-1830 :لجون وولف الأمريكي، والذي هو عبارة عن عصارة أفكار تركز على التجربة الأوربية في عصر القوة والتقدم، والتي تتصادف مع التجربة الجزائرية في ظل الدولة العثمانية في عهد الضعف والتراجع.

يحتوي الكتاب على عدد من الفصول(16 فصل) و508 صفحة، مخصص لتاريخ الجزائر خلال الفترة الحديثة، أي عهد الأتراك العثمانيين بالجزائر، ولعلي أشير إلى ما ذكره صاحب الكتاب في مقدمته لتحديد مركز دراسته، بأطروحتين رئيسيتين: الأولى، وهي التطور التاريخي للمجتمع السياسي الجزائري خلال العهد العثماني 1518-1830مـ، تجربة احتلال أجنبي لشعب دام أكثر من ثلاثة قرون، تجربة تعتبر درسا كمثال وحيد.الثانية، هي التفاعل والتأقلم الأوربي مع هذا الاحتلال الأجنبي ومشاكله في غرب البحر الأبيض المتوسط طيلة المدة المذكورة آنفا.

يتحدث الكاتب عن بداية احتلال اسبانيا لموانئ ومدن سواحل شمال إفريقية عامة، منذ السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك عندما احتل الدوق دي مادينا سيدونا(Duc de Medina Sidona)مليلية، غير أنه كان قد مر حوالي عشر سنوات قبل أن تحتل القوة الاسبانية المرسى الكبير سنة1505مـ لإيجاد ميناء مناسب للسفن الاسبانية في سواحل افريقية الشمالية، وبعد ذلك بخمس سنوات

وبدافع من الأسقف خيمينيز دي سيسنيروس(Ximénies de Cisneros)استطاع بيدرو نافارو أن يحتل مدينة وهران سنة1509مـ بطريقة وحشية وعنيفة، وبمعاملة قاسية، أحدثت رجة من الرعب في أوساط السكان المحليين، الأمر الذي دفع بباقي المدن الجزائرية إلى طلب الدخول في طاعة الأسبان كتوابع لسلطانه، وهذا ما يسعى إليه فرديناند بإقامة مراكز محصنة في أهم الموانئ على طول الساحل الإفريقي، بهدف وقف نشاط البحارة القراصنة ضد الممتلكات الاسبانية أكثر من أية اعتبارات أخرى.

صحيح أن الحضور العثماني في الحوض الغربي للمتوسط كان له الأثر الكبير على سير الأحداث من خلال تدخلاتهم في دول المغرب، بإعطاء سند للرد على الهجمات الاسبانية، ولكن الحقيقة تثبت أن سياسة فرديناند اعتبرت حركة رد على احتلال المسلمين للأندلس والذي استمر ما يقرب من ثمانمائة سنة[33].

في المقابل يطرح مسألة أخرى يراها متأصلة عند الشعوب البربرية والعربية في شمال إفريقيا، وهي ظاهرة التعصب الديني، والتي ازدادت اشتعالا بسبب الاستبداد والمعاملة القاسية التي عُومِل بها المسلمين بعد سقوط غرناطة، في إشارة إلى محاكم التفتيش التي أجبرت الموريسكيين على قبول التنصر والتخلي عن عقيدتهم وعاداتهم الإسلامية، أو الحرق والسجن والتهجير خارج اسبانيا، وهي القصص والروايات والأخبار التي ملأت الفضاء التاريخي والأدبي للحوض الغربي للبحر

[33] -زهراء النظام، العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط، تنسيق: عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، العثمانيون والعالم المتوسطي، المغرب الأقصى: مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2003، ص ص:57-79.

الأبيض المتوسط في تلك الفترة، الأمر الذي غرس في نفسية العربي المسلم شعور العداء والكره، ومحاولة التخلص من هذا الاحتلال[34].

ولتغطية عملية الاحتلال الاسباني للسواحل المغربية، يقول هناك فرق بين استيلاء الأتراك الذين كانوا مكروهين من الأهالي وحكموا البلاد كلها، وجعلوها تحت نفوذهم، وبين التدخل الاسباني الذي اكتفى بإنشاء حصون على الموانئ الرئيسية. ولكن يبدوا أن الكاتب قد نسي أو تناسى أن الجزائريين هم الذين استنجدوا بالسلطة العثمانية، وأن الأسبان وعلى مدى تاريخهم(الوسيط الحديث والمعاصر) تميزوا بتطلعاتهم الثقافية وبميلهم إلى التعصب والغيرة على الدين، أو بمعنى آخر بدرجات متفاوتة من عدم التسامح[35].

يقر جون وولف بالعداوة الدائمة بين الطرفين، وبأنه لا يمكن أن يكون فيه سلام بين اسبانيا والجزائر، مادامت السفن الاسبانية تعترضها القرصنة الجزائرية، وحتى لما ضعفت القوة البحرية العثمانية خلال القرن الثامن عشر، فإن حصون مدينة وهران وميناء المرسى الكبير ظلت هدف التهديدات العثمانية. ومما أضعف سلطة العرش الاسباني بعد وفاة الملك شارل الثاني سنة 1700مـ اندلاع الحروب الأوربية والتي أصبحت حربا أهلية لتقرير حق الخلافة على العرش الاسباني، أعطى الفرصة للأتراك الجزائريين في الاستيلاء على مدينة وهران والمرسى الكبير عام1708م[36].

---

[34]-مانثاناريس مانويلا، المستعربون الأسبان في القرن التاسع عشر، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2002، ص:12.

[35]-جون وولف، المرجع السابق، ص:113.

[36]-نفسه، ص:399.

يبدوا أن القانون التاريخي الذي يحتكم إليه الكاتب، هو قانون الحاجة للبقاء، حيث يحرك التاريخ والوقائع التاريخية خلف تلك الحاجة، وهو ما يظهر عندما يعتبر ضياع وهران عام 1708مـ صدمة قوية للشرف الاسباني، وهزيمة للمسيحية، لذلك كانت الرغبة في استعادتها رغبة دينية، ومطلب سياسي واضح، وضوح المطالب القومية في القرن التاسع عشر، وبعد أن استعادت اسبانيا عافيتها السياسية والاقتصادية، وقوتها البحرية في عهد الملك فيليب الخامس، هذه القوة لم تكن على قدم المساواة مع قوة انجلترا وفرنسا، بل كانت أكثر أثرا على دول شمال افريقية الإسلامية، حيث استطاعت اسبانيا في جوان1732مـ أن تجمع أسطولا ضخما بقيادة الكونت دي مونتمار الذي استعاد مدينة وهران بسرعة ودون مقاومة تقريا تذكر من الباي بوشلاغم.

وفيما بين سنوات1732-1790مـونظرا لتهديدات الحروب الأوربية، وللنكبات التي لحقت بالحملات الاسبانية على سواحل الجزائر(حملة أوريلي)، وللتخريب الذي لحق مدينة وهران من جراء زلزال اكتوبر1790مـ الذي أودى بحياة الحاكم العام لوهران ومجموعة كبيرة من الضباط السامين، والأطباء وآلاف السكان، وتدمير المنشآت العمرانية اضطرت اسبانيا التخلي عن المدينة التي دخلها الباي محمد بن عثمان الكبير رسميا شهر فبراير1792م[37].

وفي الأخير، نقول بأن جدوى الكتابة التاريخية حول هذا الموضوع التاريخي، الصراع الاسباني- الجزائري تتعلق بمحاولة الكشف عن الحقائق التاريخية، لأن الكشف ضرورة للفهم الفعال للماضي وللحاضر، ونعتقد أنه دون الرؤية التاريخية،

[37]-نفسه، ص: 410.

ستكون حركة التاريخ وتاريخنا على وجه الخصوص حركة عشوائية. فبالفهم سنعرف كيف نستعين بامتداد تاريخنا وتراثنا فينا استعانة عقلانية، وبفهم العلاقة مع الآخر في التاريخ. أي أن البناء التاريخي ضرورة مهمة حتى في المجالات الأخرى(الاقتصادية، الثقافية، الفكرية...) والتي هي من أهداف مراجعة كتابة التاريخ.

5-خاتمة:

بعد هذا العرض المتواضع لنظرة بعض الكتابات المحلية والأجنبية للصراع العسكري والسياسي والديني الذي دار في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بين الجزائر واسباني المدة ثلاثة قرون من الزمن(ق16و17و18)، تبين لي أن الحسّ التاريخي لدى معظم الكُتاب حس مجتزأ وقطاعي، يأخذ من التاريخ ما يتحمس له، ويطرح ما يدينه برؤيته، أي أنه يتجزأ إلى مذاهب وفرق، ومن ثم يفقد تاريخيته، فالحاسة التاريخية المجزأة تتحول إلى حاسة لا تاريخية، لأنها ترى من التاريخ ما يوافق هواها ورؤاها، وينسجم مع إيمانها، والعكس بالعكس. وانطلاقا من هذه الرؤية استنتجت ما يلي:

-إن الكتابات التاريخية المحلية من حيث المضمون(المعلومات) وطريقة التناول(المنهج) كانت تعبيرا صادقا عن حاجات المجتمع الجزائري الذي يقوم أساسا على العقيدة الإسلامية دينا وعبادة، وعلى الجزائر وطنا وهوية.

-في المقابل كانت الكتابات الأجنبية ذات المعرفة المسيحية أسلوبا ومحتوى وموقفا، تقوم على محاولة فرض جملة من المفاهيم والتصورات الدينية الكنسية خاصة على شعوب المنطقة، وذلك بمحاولة ربط العالم المسيحي عن طريق الأخذ بالتراث الإغريقي الروماني بالتراثين الوسيط والحديث لتعميق المفهوم المسيحي لدى الفرد

الأوربي عامة والاسباني خاصة بعد سقوط غرناطة عام 1492مـ، حسب تعليمات الكنيسة ورجال الدين.

– أظهرت الكتابات المحلية كلها أن اسبانيا بدأت مباشرة بعد سقوط غرناطة عام 1492مـ في توطيد أقدامها بشمال أفريقيا باحتلال العديد من المدن الجزائرية كالمرسى الكبير ووهران، حيث ارتكبت من الأعمال الوحشية والتنكيل بالسكان ما يعجز عن وصفه القلم، ولما عجز السكان عن رد تلك الهجمات، أرسلوا يستنجدون بالإخوة بربروس وبالدولة العثمانية، ليتحول الصراع إلى اسباني –عثماني(إسلامي-مسيحي).

– ركزت الكتابات الأجنبية على قضية القرصنة البحرية، واعتبرتها جريمة يجب وضع حد لها، وإلصاق التهم بالدولة العثمانية كونها دولة محتلة لشمال إفريقيا، وأن حكامها ظالمين متجبرين مثيرين للاضطرابات، ومصورين الوطن الجزائري ملجأ للصعاليك وقطاع الطرق ونهاب البحر.ولكن الحقيقة التاريخية أثبتت أن بعض الكتابات كانت عبارة عن دعايات سياسية ودينية، سواء لفائدة الكنيسة والمسيحية، أو لفائدة العثمانيين والمسلمين.ولكن، لنا أن نتساءل لصالح من كانت دعاية تقتيل وتصفية السكان الأصليين(الهنود الحمر) بأمريكا الوسطى والجنوبية في نفس التاريخ؟.

7- قائمة المصادر والمراجع:

1-بوعزيز، يحي، وهران، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1985.

-ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق: ا. م. كاترمير، طبعة باريس سنة1858، بيروت، مكتبة لبنان، 1992.

2– الزهار، أحمد الشريف، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، الجزائر، دار البصائر، 2009.3– ابن سحنون الراشدي، أحمد، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، منشورات وزارة الشئون الدينية، 1973.

4– فروخ، عمر، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، ط1. بيروت، منشورات المكتب التجاري، 1959.

5– فروخ، عمر، أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية، ط2، بيروت، منشورات مكتبة منينمنة، 1952.

6– علي محمد، عبد الوهاب، بين الإسلام والغرب– ضراوة أحقاد ومرارة حصاد، القاهرة، دار ركابي، 1996.

7–مانثاناريس، مانويلا، المستعربون الأسبان في القرن التاسع عشر، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002.

8– المشرفي، عبد القادر، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، بيروت، منشورات مكتبة دار الحياة،1972.

.9– ابن ميمون، محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق:محمد بن عبد الكريم، ط1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972.

10–النظام، زهراء، العثمانيون والصراع المسيحي الإسلامي في غرب المتوسط، تنسيق: عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، العثمانيون والعالم المتوسطي ط1، المغرب الأقصى، مطبعة النجاح الجديدة، 2003.

11–نويهض، عادل، معجم الأعلام، ج1، لبنان، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1975.

12– ابن هطال التلمساني، أحمد، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، ط1، القاهرة، عالم الكتب، 1969.

13– وولف، جون، الجزائر وأوربا 1500–1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

14-Braudel, Fernand, (1928), les espagnols et l'Afrique du nord de 1492-1577, Revue. Africaine. n°69, -pp : 212-217.

15-Dalrymple .Major, (1861).l'Expédition d'Oreilly en 1775, Revue. Africaine, N°5, pp : 33-34 – 16-Féraud, Charles(1876), les trois attaques des espagnols contre Alger au XVIII siècle, Revue. Africaine, n°20, pp : 302-304.
17-Henry-Léon. Fey, (1858). Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination espagnole, Oran : typographie Adolphe Perrier éditeur.
18-Monnereau(Dr), (1871), les inscriptions d'Oran et de mers el-kebir, par M le général de Sandoval, Revue. Africaine. n°15, pp : 177-183.